

220098 - الاستعارة في قوله تعالى : (أدركه الغرق)، (سكت عن موسى الغضب)، (يريد أن ينقض)

السؤال

من أنواع البلاغة التشخيص ، وهو : إعطاء غير العاقل صفة العاقل كما هو معلوم ، مثل قوله تعالى عن فرعون : (حتى إذا أدركه الغرق)، فالغرق أعطي صفة العاقل .
فهل يمكن أن نحمل قوله تعالى : (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض)، وقوله تعالى : (فلما سكت عن موسى الغضب) على التشخيص ؟

الإجابة المفصلة

أولا :

الآيات الكريمة المقصودة في السؤال هي قول الله عز وجل : (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ) يونس/90، وقوله سبحانه : (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضُّ أَخَذَ الْأَلْوَاخَ وَفِي نُسْحَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَهِبُونَ) الأعراف/154، وقول الله جل وعلا : (فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُصَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) الكهف/77.

وعلماء البلاغة والبيان يقولون إنها كلها من لطيف الاستعارة وبلغ المجاز ، وذلك في قوله عز وجل : (أدركه الغرق)، و(سكت عن موسى الغضب)، وقوله سبحانه : (يريد أن ينقض) .

وبيان ذلك أن الاستعارة هي ” نقل اللفظ من معناه الذي عُرف به ووُضع له ، إلى معنى آخر لم يعرف به من قبل “

وهكذا كل من (الإدراك) و (السكوت)، و (الإرادة) عرفت أنها من صفات العقلاء وأفعالهم ، فنسبتها لغير العقلاء أو للمعاني استعارة واضحة ، ويسمى أيضا مجازا لغويا لدى أكثر البيانين .

ونحن ننقل هنا أقوال علماء التفسير واللغة والبيان في كل آية منها لتوضيح ما فيها من الاستعارة والمجاز :

الآية الأولى : (حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْعَرْقُ)

يقول الشعراوي رحمه الله :

" (حتى إِذَا أَذْرَكَهُ العرق قَالَ آمَنْتُ) [يونس: 90] ، الإدراك : قصد للمدرك

أن يلحق بالشيء ، والعرق معنى ، فكيف يتحول المعنى إلى شيء يلحق الفرعون ؟ نعم ، فكأن العرق جندي من الجنود ، وله عقل ينفعل ؛ فيجري إلى الأحداث " انتهى من " تفسير الشعراوي " (10/ 6181).

الآية الثانية : (سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ)

يقول أبو منصور الثعالبي رحمه الله (429هـ):

" من استعارات القرآن (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ) " انتهى من " فقه

اللغة وسر العربية " (ص 273).

ويقول ابن رشيقي القيرواني (463هـ):

" الاستعارة كثيرة في كتاب الله عز وجل ، وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم ، من ذلك

قوله تعالى : (لما طغى الماء)، وقوله : (فلما سكت عن موسى الغضب) " انتهى من

"العمدة في محاسن الشعر" (1/275).

ويقول السكاكي رحمه الله (626هـ):

" وقوله : (ولما سكت عن موسى الغضب) .

(فالمستعار منه) هو إمساك اللسان عن الكلام ، وأنه أمر معقول .

(والمستعار له) تفاوت الغضب عن اشتداده على السكون ، وأنه أيضا أمر وجداني عقلي .

(و الجامع) هو أن الإنسان مع الغضب إذا اشتد وجد حالة للغضب كأنها تغريه ، وإذا

سكن وجده كأنه قد أمسك عن الإغراء " انتهى من "مفتاح العلوم" (389-390).

الآية الثالثة : (فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ)

يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي (170هـ):

" وكذلك يلزمون الشيء الفعل ولا فعل ، وإنما هذا على المجاز ، كقول الله جل وعز في

البقرة : (فما ربحت تجارتهم)، والتجارة لا تربح ، فلما كان الربح فيها نسب الفعل

إليها . ومثله (جدارا يريد أن ينقض) ولا إرادة للجدار " انتهى من " الجمل في

النحو " (ص 72).

ويقول ابن فارس رحمه الله :

” من سُئِنَ العرب إضافة الفعل إلى ما ليس فاعلاً في الحقيقة ، يقولون : أراد الحائط أن يقق . وفي كتاب الله جل ثناؤه : (جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُصَ) ، وهو في شعر العرب كثير .“ انتهى من “الصاحبي” (160).

ويقول أبو هلال العسكري رحمه الله (395هـ):

” أما ما جاء في كلام العرب منه [يعني من الاستعارة]، فمثله قوله تعالى : (جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُصَ) .“ انتهى من كتاب “الصناعتين” (277) .

ويقول ابن رشيق القيرواني

(463هـ):

” وقال في قول الله عز وجل: ” فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ” لو قلنا لمنكر هذا كيف تقول في جدار رأيتته على شفا انهيار ؟ لم يجد بدأ من أن يقول : بهم أن ينقض ، أو يكاد ، أو يقارب ، فإن فعل فقد جعله فاعلاً ، ولا أحسبه يصل إلى هذا المعنى في شيء من أسنة العجم إلا بمثل هذه الألفاظ .
والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة ، وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع ، وما عدا الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن محالاً محضاً فهو مجاز ؛ لاحتماله وجوه التأويل ، فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز ، إلا أنهم خصوا به أعني اسم المجاز باباً بعينه ؛ وذلك أن يسمى الشيء باسم ما قاربه أو كان منه سبب ” انتهى من “العمدة في محاسن الشعر” (1/266).

وهذه ” الاستعارة ” – في هذه

الأمثلة – يسميها المختصون في الأدب المعاصر بـ ” التشخيص ” ، أو بـ ” التجسيد ” ، على اختلاف بينهم في التفريق بين هذين المصطلحين أو ترادفهما .

والتشخيص ” عند البلاغيين :

هو بث الحركة والحياة والنطق في الجماد ، أو خلع الحياة على المحسوسات الجامدة والظواهر الطبيعية الصامتة ، حتى إنها لتخاطب مخاطبة الذي يعقل ويفهم ، وتخلع عليها صفات المخلوقات النابضة بالحياة .

فهو نمط استعاري يقوم على علاقة المشابهة بين طرفين ، أحدهما حسي جامد أو ذهني ، والآخر إنساني .

وانظر : “الصورة الأدبية” – تاريخ ونقد (ص 126) / لعلي علي صبح .

ويقول إبراهيم فتحي :

” التشخيص (تجسيد) (personification) : تعبير بلاغي يسبغ فيه على التجريدات والحيوانات والمعاني والأشياء غير الحية شكلا وشخصية وسمات انفعالية إنسانية . وفي التشخيص قد يعتبر كائن أو شخص من نسج الخيال ممثلا لفكرة أو موضوع . ولكون التشخيص نوعاً من الاستعارة نجده منبعا مطروقا في الشعر ، كما يظهر في أنواع أخرى من الكتابة الأدبية ، ومن أمثلة التشخيص زهرية كيتس اليونانية ، التي يقول عنها إنها مؤرخ للأحداث . ويقترَب من نزعة التشبيه الإنسانية “ . انتهى من “معجم المصطلحات الأدبية” (ص/85).

ثانيا :

ما ذكر في توجيه الآيات السابقة ، إنما هو على القول المشهور بين علماء العربية ، والأصول : من إثبات المجاز في القرآن الكريم .
وأما على قول من نفى المجاز في القرآن : فلا يتجه ذلك ، وإنما يحمل الكلام على حقيقته ، وسياقه ، وقرائن الكلام : يوضح معناه .

والقول بمنع وقوع المجاز في

القرآن : هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وتبعه على ذلك جمع من المحققين ، منهم : تلميذه ابن القيم ، والعلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ، وهو أيضا اختيار الشيخ ابن باز ، والشيخ ابن عثيمين ، رحمهم الله جميعا .
وعلى هذا القول : يختلف توجيه الآيات السابقة .

قال الشنقيطي رحمه الله :

” قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ) ، هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ أَكْبَرِ الْأَدِلَّةِ الَّتِي يَسْتَدِلُّ بِهَا الْقَائِلُونَ : بِأَنَّ الْمَجَازَ فِي الْقُرْآنِ زَاعِمِينَ أَنْ إِرَادَةَ الْجِدَارِ الْإِنْفِصَاصَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ حَقِيقَةً ، وَإِنَّمَا هِيَ مَجَازٌ .

وَقَدْ دَلَّتْ آيَاتٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَلَى أَنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْ كَوْنِ إِرَادَةِ الْجِدَارِ حَقِيقَةً ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ لِلْجَمَادَاتِ إِرَادَاتٍ وَأَفْعَالًا وَأَقْوَالًا لَا يُدْرِكُهَا الْخَلْقُ ، كَمَا صَرَّحَ تَعَالَى بِأَنَّهُ يَعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ مَا لَا يَعْلَمُهُ

خَلَقُهُ فِي قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) ، فَصَرَخَ بِأَنَّا لَا نَفْقَهُ تَسْبِيحَهُمْ ، وَتَسْبِيحُهُمْ وَاقِعٌ عَنْ إِرَادَةِ لَهُمْ يَعْلَمُهَا هُوَ جَلَّ وَعَلَا وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُهَا ، وَأَمْتَالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ .

فَمِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) ؛ فَتَضْرِيحُهُ تَعَالَى بِأَنَّ بَعْضَ الْحِجَارَةِ يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ : دَلِيلٌ وَاضِحٌ فِي ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ تِلْكَ الْخَشْيَةَ يَأْذِرَاكُ يَعْلَمُهَا اللَّهُ ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُهَا .

وقَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) الْآيَةَ ، فَتَضْرِيحُهُ جَلَّ وَعَلَا بِأَنَّ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالَ أَبَتْ وَأَشْفَقَتْ ، أَيُّ : خَافَتْ ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ وَاقِعٌ بِإِرَادَةِ وَإِذْرَاكُ يَعْلَمُهَا هُوَ جَلَّ وَعَلَا ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُهَا .

وَمِنَ الْأَحَادِيثِ

الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجْرًا كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ بِمَكَّةَ) ، وَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَنِينِ الْجِدْعِ الَّذِي كَانَ يَخْطُبُ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَرَعًا لِفِرَاقِهِ ، فَتَسْلِيمُ ذَلِكَ الْحَجَرِ ، وَحَنِينُ ذَلِكَ الْجِدْعِ كِلَاهُمَا بِإِرَادَةِ وَإِذْرَاكُ يَعْلَمُهَا اللَّهُ ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُهَا ، كَمَا صَرَخَ بِمِثْلِهِ فِي قَوْلِهِ : (وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) .

وَرَعْمٌ مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدِهِ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ لَا حَقِيقَةَ لَهَا ، وَإِنَّمَا هِيَ صَرْبٌ أَمْتَالٍ ، رَعْمٌ بَاطِلٌ ؛ لِأَنَّ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا يَجُوزُ صَرْفُهَا عَنْ مَعْنَاهَا الْوَاضِحِ الْمُتَبَادِرِ ،

إِلَّا بِدَلِيلٍ يَجِبُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ، وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا

وَبِذَلِكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْ إِبْقَاءِ إِرَادَةِ الْجِدَارِ
عَلَى حَقِيقَتِهَا، لِإِمْكَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ عَلِمَ مِنْهُ إِرَادَةَ
الْإِنْقِصَاضِ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ حَقُّهُ تِلْكَ الْإِرَادَةَ، وَهَذَا
وَاضِحٌ جِدًّا كَمَا تَرَى .

مَعَ أَنَّهُ مِنَ الْأَسَالِبِ الْعَرَبِيَّةِ إِطْلَاقُ الْإِرَادَةِ عَلَى
الْمُقَارَبَةِ وَالْمَيْلِ إِلَى الشَّيْءِ، كَمَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:
فِي مَهْمِهِ قَلَقْتُ بِهِ هَامَتُهَا ** قَلَقَ الْمُتُوسِ إِذَا أَرَدَنْ
نُضُولًا

فَقَوْلُهُ: إِذَا أَرَدَنْ نُضُولًا، أَي قَارَبْتَهُ .

وَقَوْلِ الْأَخْرَجِ:

يُرِيدُ الرَّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ ** وَيَعْدِلُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عَقِيلِ
أَي: يَمِيلُ إِلَى صَدْرِ أَبِي بَرَاءٍ . " انتهى من "أضواء البيان" (3/
339-340) .

وقال ابن كثير رحمه الله في

قوله تعالى: (وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) قَالَ: "
وَقَدْ رَعِمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الْمَجَازِ؛ وَهُوَ إِسْنَادُ
الْحُشُوعِ إِلَى الْحِجَارَةِ كَمَا أُسْنِدَتِ الْإِرَادَةُ إِلَى الْجِدَارِ فِي
قَوْلِهِ: (يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ) قَالَ الرَّازِيُّ وَالْقُرْطُبِيُّ
وَعَظِيمُهُمَا مِنَ الْأَيْمَةِ: وَلَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا " انتهى من "تفسير
ابن كثير" (1/ 305) .

وكذلك قوله تعالى: (

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْعَصْبُ أَخَذَ الْأَلْوَاخَ) الأعراف/ 154،
المقصود: سكن عنه الغضب، قال شيخ الإسلام رحمه الله:
" وَصَفَ الْعَصْبُ بِالشُّكُوتِ، وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ وَمُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ وَعِكْرِمَةَ: (وَلَمَّا سَكَتَ) بِالثُّونِ
، وَعَلَى الْقِرَاءَةِ الْمَشْهُورَةِ (بِالثَّاءِ) قَالَ الْمُفَسِّرُونَ:
سَكَتَ الْعَصْبُ أَي سَكَتَ . وَكَذَلِكَ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الرَّجَاجُ

وَعَبْرُهُ . قَالَ الْجَوْهَرِيُّ : سَكَتَ الْعَضْبُ مِثْلُ سَكَنَ " انتهى من
"مجموع الفتاوى" (5/ 568) .

ومثل هذا يقال في سائر المواضع التي يحملها البلاغيون على المجاز .

والله أعلم .